

من نظر فاد العصر العباسي :

أبو العيناء

١٩١ - ٢٨٣ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

(تمة ما نشر في العددين السابقين)

—>>><<<—

— ٥ —

عرفنا أسلوب أبي العيناء مع الخلفاء والأمراء والوزراء ،
فما رأينا مع أحد منهم إلا صريحاً ؛ فلا يستغرب بعد ذلك إذا
أناض في مداعباته كل الإفاضة مع الطبقتين الوسطى والدنيا ،
لأن معارفه فيهما كانوا كثيرين ، وكان — بحكم الصداقة —
أشد رغبة في التفات من كل كافة ، وأكثر طوافية في الإقبال
على كل ما يدخل السلى على محبيه .

ولابد من الإشارة إلى تلك الملافة القوية التي توطدت بينه
وبين الجاحظ : فقد كانا صديقين لا كافة بينهما ، بل قد اشتركا
سويكاً في وضع حديث « فذك » كما يعرف المشتغلون بعلم الحديث .
وخلصة هذا الحديث أن السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله
عليه وسلم طالبت بعد وفاته بتصميمها مما ترك ، وأنها بكيت وأبكت
لتصل إلى ما تبقى . والحديث باطل من أساسه كما اعترف
أبو العيناء بذلك حين قال : « أنا والجاحظ وضمتنا حديث فذك »
وقال إسماعيل بن محمد النجوى : « كان أبو العيناء يحدث بذلك
بعد ما مات الجاحظ »^(١) . وقد ذكره ابن حجر في (الموضوعات)
وإن علاقة بين اثنين تسمح لهما بوضع حديث مشترك لهما
علاقة متينة لحنها التمام وسداها الانسجام : فلا بدع إذا رأينا
الجاحظ يملك في مداعبة أبي العيناء سبيلاً لا يسلكه إلا الأجابة ،
ويقابله الآخر برضا وارتياح . والقصة التالية تليق ضوءاً على نوع
الصداقة التي استحكمت عراها بين الرجلين .

قال أبو العيناء : « كان لي صديق فجاءني يوماً فقال لي :
أريد الخروج إلى فلان العامل ، وأحببت أن يكون مني إليه
وسيلة . وقد سألت من صديقه ؟ فقيل لي : أبو عثمان الجاحظ

— وهو صديقك — فأحب أن تأخذني كتابة إليه بالمعانية ؛
فصرت إلى الجاحظ فقال لي : في أي شيء جاء أبو عبد الله ؟ فقلت :
مسدداً وقاضياً للحق ، وفي حاجة لبعض أسدقائي وهي كذا
وكذا . فقال : لا تشغلنا الساعة عن الحادثة وتعرف أخبارنا ...
إذا كان في غد وجهت إليك بهذا الكتاب ، فلما كان من
الغد توجه إلى بالكتاب ، فقلت لابني : توجه بهذا الكتاب
إلى فلان فقيه حاجته . فقال لي : إن أبا عثمان يمد النور ، فيبضي
أن نفسه ونظر ما فيه . فعمل فإذا فيه : كتابي إليك مع من لا
أعرفه ، فقد كلني فيه من أوجب حقه ؛ فإن قضيت حاجته لم
أحدك ، وإن رددته لم أذمك . فلما قرأت الكتاب مضيت إلى
الجاحظ من فوري . فقال : يا أبا عبد الله قد علمت أنك أنكرت
ما في الكتاب . فقلت : أو أيس موضع نكرة ؟ فقال : لا ،
هذه علاقة بيني وبين الرجل فيمن أعنتني به . فقلت : لا إله إلا الله
ما رأيت أحداً أعلم بطبيعتك ولا بما جبت عليه من هذا الرجل ...
علمت أنه لما قرأ الكتاب قال أم الجاحظ عشرة آلاف في عشرة
آلاف ، أم من يسأله حاجة . فقلت : يا هذا تشتم صديقنا ؟ فقال :
هذه علامتي فيمن أشكره ا »^(٢)

ولم يكن الجاحظ يكتبني بمداعبته أبي العيناء على هذا النمط
فإنه كان أحياناً ما يذبه واجداً في تمذيبه ارتياحاً غامضاً في نفسه
« كان الجاحظ يتقلد في خلافة إبراهيم بن العباس على ديوان
الرسائل ، فلما جاء إلى الديوان جاءه أبو العيناء . فلما أراد أن
يخرج من عنده تقدم إلى من يحجبه أن لا يدعه يخرج ولا يدعه
يرجع إليه إن أراد الرجوع . فخرج أبو العيناء يريد الانصراف
فتم من الخروج ومن الرجوع إلى الجاحظ ، فنادى أبو العيناء
بأعلى صوته : يا أبا عثمان قد أرتبنا قدرتك فأرنا عفوك ا »^(٣)
ومثل هذا النمط من التمذيب في المداعبة كثيراً ما تجده
بين التفاضلين من الأندقاء . وكان من أشد هؤلاء صلة بابي العيناء
محمد بن مكرم والعباس بن رستم اللذان سئل عنهما مرة فقال :
ها الخمر والبسر ، إنهما أكبر من نعمهما . وأكبر الظن أن صلته
ببن مكرم كانت أقوى ، لأن مداعبته له كثيرة مشهورة .

(١) تاريخ بغداد ص ١٧٥ ج ٣

(٢) التلخيص السابق ص ١٧٨ ج ٣

(٣) السند البزاز ص ٣٠٦ ج ٥

« أما بسم الله فإني لا أعطيك بموعظة الله لأنك منها فني ، ولا أخوفك إياه لأنك أعلم به مني ، ولكنني أقول كما قال الأول : أحار ابن بدر قد وليت ولاية فسكن جرداً منها تخون وتسرق وكأثر تيمنا بالفني إنما الفني إسان به المرء الهيوثة ينطق داعلم أن الحياة فطنة ، والأمانة حرفة ، والجمع كبس ، والمنع صرامة ؛ وليس كل يوم ولاية ، فاذا كر أيام المعاملة . ولا تحقرن صغيراً ، فإن من الدور إلى الدور ، وإبلاء الولاية رقدة ؛ فتنبه قبل أن تنبه . وأخوال السلطان أعمى عن قليل سوف يبعثر . وما هذه الوصية التي أوصى بها بمقرب بنبيه ؛ ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل ، وترك الآجل . »

وهكذا خلط أبو العيناء في هذه الموعدة العجيب أسلوبها كثيراً من الهزل في الجد ، فما أحب لصاحبه الأمانة لأنها حرفة الحازنين ، ولا كره لصاحبه الحياة لأنها فطنة وذكاء ، وما أحب له أن يجود بماله لأن في المنع صرامة وحزم ، ولا كره له أن يجمع القناطر المتنظرة لأن في كثرتها أهبة ونخراً . فليتنهز فرصة ولايته فإنها لا تسرح دائماً ، وليكسب ما استطاع من النعمان ليكون حكماً حازماً ، ويضم الصغير مع الكبير ، وليلق القليل على الكثير ، وليجمع القليل والقطمير ، وليفتح عينه على كل شيء دق أو جل ، فرعاً تعطل بمدعمل ، ورعاً أقل يحجم بمدأمل . أما الآخرة فنعيمها آجل بعيد ، أين منه نعيم الدنيا القريب ؟ أفرايت عجب من هذه الموعدة ، وأعرب من هذه الوصية ؟ أما إنها - على مسحة الهزل فيها - للدعوة سارخة إلى اجتياز حدود الدين التي تضع سداً بين واجب الإنسان وطعمه ، وبين مسؤوليته وجشعه ، وتسلط به سبيل الزهد عن ظهر غنى ، والمهفات على قوة وقدرة . فما كان أضف دبتك يا أبا العيناء ! وما كان أشد تساهلك أيها الزارية الطريف !

- ٦ -

وإذا أضفنا إلى التحلل تدبته سفاهة لسانه بعابمه وهججراه أصبح واضحاً لدينا أنه كان منهن السكا على إرضاء هواه وإشباع شهوته ، وأنه ما كان ليتورع عن الخروج على أصلح التقاليد بنفسه بمد أن خرج عليها بتعبير لسانه ، لأن عفيف النفس يأبى

وإن مكرم كان من هذا النوع من الأصدقاء الذي يحب أن يجد السرور لنفسه ولو بالنهم على صديقه - وما أكثرهم في كل زمان ومكان - وكان يرى في عمى أبي العيناء فرصة لإبذائه لا رغبة في الإبذاء نفسه فلا حاجة به إليه ، ولكن ليستمتع برود أبي العيناء البتكرة ، وأجوبته اللاذعة .

حضره يوماً وأخذ يؤذيه ثم قال : الساعة والله أنصرف فقال أبو العيناء : ما رأيت من يتهدد بالعافية غيرك ! وقال له يوماً يمرض بالبلد الذي نشأ فيه : كم عدد المكدين (التسولين) بالبصرة ؟ قال : مثل عدد البنائين ببغداد . فأجاب بأشد من تبريضه .

وأبو العيناء في طولته مع ابن مكرم يسمى إلى إبلامه رده ، بمقدار تأله من هزله وجده ، وهو إذا أراد أن يرسل الجواب لا يمتنه منه مانع ، ولا يصد عنه صاد ، لأنه يرى أن الحرية في الدفاع أجدر من الحرية في الهجوم !

ومهما اختلف الباحثون في تحليل تقسية هذا الظريف فتجملهم النصوص الكثيرة على الاتفاق على رقة دينه ، إذ كان يتعرض للدين في مختلف المناسبات غامراً لا يعبأ ولا يبالي . قال له العباس بن رستم يوماً : « أنا أ كفر منك . فقال له : لأنك تكفر وممك خفير مثل عبيد الله بن يحيى وابن أبي دؤاد وأنا أ كفر بلا خفارة . »

وأنا لا أصدق أن هذا من الظرف في شيء ، إذ ما كان ليعترف بأنه يكفر بلا خفارة إلا لرفق دينه ، وإن قوى الدين لا تسمح له نفسه أن يتظرف بشيء يتناق مع الأدب في اعتقاده ، بل يرى أن كل شيء يباح له الخوض فيه إلا الدين ، فإن له حرمة لا يحل مسها لمخلوق . أما صاحبنا فيرى من الظرف والكياسة أن يتظاهر بمخالفة الدين . قال مرة : « أنا أول من أظهر العقوق بالبصرة . قال لي أبي : يا بني ، إن الله تعالى قرن طاعته بطاعتي ، فقال : « اشكر لي ولو لديك » فقلت له : يا أبت إن الله ائتمني عليك ولم يأتمنك علي ، فقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » .

وقد كتب أبو العيناء إلى صديق له ولي ولاية موعظة عجيبية اعتبرها وثيقة على ضعف دينه . واقرأ إذا شئت ما كتب

ولم يستحي أبو العيناء مدى حيائه من تكرار رواية هذا الحديث الرضوع حتى قال إسماعيل بن محمد النحوي : « كان أبو العيناء يحدث بذلك بعد ما مات الجاحظ » (١) . وروى عنه ابن حجر أيضاً حديث « مثل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل الذين ، ودواء الذين ترك مسها » وعلق عليه بقول الدارقطني : « لم يروه غير أبي العيناء » (٢) . ولست أستغرب أن يضعفه حفاظ الحديث ، فإن رجلاً يعترف بجرعة الكذب على رسول الله ثم ينشر كذبه جدير به أن يتخيل ما شاء ليرضى ملكة الكذب السيطرة على لسانه . وحرى أن يضحك ما طاب له ليقض ضاحكاً مدى الحياة لذلك كان أسلوبه واحداً لا يتغير : فلسانه سليط مع الجميع ، وربما كان أكثر تمكناً من الاسترسال مع العاديين من الناس لأنه لا يجد من النازق بينه وبينهم ما يمنه من النظرف كيف شاء .

قال له ابن الجارز الغني يوماً : « هل تذكر سالف معاشرتنا ؟ فقال : إذ تغنينا ونحن نستغفيك ؟ » . وقالت له فينة : « هب لي خاتمك وأذكرك به . فقال لها : أذكرى أنك طالبتني مني ومنعتك » وهو إذا استطاع أن يخوض من قدر محدثه أيكبر من قدر نفسه لا يتورع ولا يحطأ : اعترضه يوماً أحمد بن سعيد فسلم عليه فقال له أبو العيناء : من أنت ؟ قال أنا أحمد بن سعيد . فقال : إن بك لعارف ، ولكن عهدي بصوتك يرتفع إلى من أسفل ، فإله ينحدر على من علو ؟ قال : لأنني راكب . فقال : عهدي بك وأنت في طمرين (٣) لو أقسمت على الله لرغيف لأعضك بما نكره » .

وهو يمازح من يعرف ومن لا يعرف ، ومن يروق لميسنه وقد لا يروق لأعين الناس ، ولا يعنيه إلا أن يكون ضاحك السن ، سواء أضحك منه الغوادر أم بات في هم دفين .

وقف عليه رجل من العامة فلما أحس به قال : « من هذا ؟ قال : رجل من بني آدم . قال أبو العيناء : مرحباً بك — أطال الله بقاءك — كنت أظن أن هذا النسل قد انتقام » .

وهذه اللطائف قليل من كثير تجد بعضها في مجمع الأدباء

على الفاظه أن تكون نابية ؛ أما وقد ترك صاحبنا نفسه على سجيبتها فلا بدع إذا كان خبيث اللسان؛ ثم لاغرو إذا كان خبيث العمل ، ثم لا عجب إذا وصمه الناس بأنه غث ، حتى قال له ابن الجهم يوماً : يا غث ! فأجاب : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلفه » . ولا يعينني هنا أن استمتع برده فما أنتظر من مثله غيره أو أقل منه ، وليكني أشير إلى أن للناس فيما أطلقوا عليه من أوصاف ما جرام من أعماله وتصرفاته . وهذا — على ما اعتقد — من الأسباب الجوهرية التي جعلت حفاظ الحديث يحكمون بضعف ما رواه هذا الظريف ، بل إن بعضهم قد رماه بالكذب والوضع ؛ فالخطيب في تاريخه — بعد أن ذكر الذين رروا عنه : وهم أحمد ابن عيسى السكي ، وأبو عبد الله الحكيم ، ومحمد بن يحيى الصولي ، ومحمد بن العباس بن نجيب ، وأبو بكر الأدي الفاري ، وأحمد بن كامل القاضي — قال : ولم يسند من الحديث إلا القليل . والغالب على رواياته الأخبار والحكايات (١) وروى عنه — لإظهار ضعفه — حديثاً ذكر سنده ثم حكم عليه بأنه غريب . وفي هذا الحديث أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بطائر فقال : اللهم آتني بأحب خاتمك إليك يا كل مني ، فجاء على فخجته مرتين ، فجاء في الثالثة فأذنت له . فقال : يا علي ما حبسك ؟ قال : هذه ثلاث مرات قد جثتها فخجتي أنس . قال : لم يا أنس ؟ قال سمعت دعوتك يا رسول الله ، فأحببت أن يكون رجلاً من قومي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الرجل يحب قومه » (٢) .

علق الخطيب على هذا الحديث بقوله : غريب بإسناده لم نكتبه إلا من حديث أبي العيناء محمد بن القاسم عن أبي عامر ، وأبو الهندي مجهول — وهو أحد رجال السند — واسمه لا يعرف ؛ ثم نقل عن أبي الحسن الدارقطني قوله : « أبو العيناء ليس بقوي في الحديث » وأكد هذا ابن حجر في (لسان اليزان) ثم روى عنه أنه قال : « أنا الجاحظ وضعنا حديث فدك » وهذا الحديث الباطل من أساسه قد سبقت الإشارة إليه .

(١) لسان اليزان ص ٢٤٦ ج ٣

(٢) المرجع السابق الصفحة ذاتها ... (٣) توبين خلتين

(١) تاريخ بغداد ص ١٧١ ج ٣

(٢) تاريخ بغداد ص ١٧٢ ج ٣

العاصفة غضبتها ، وثارت الأنواء تورتها ، خلطت السفينة
وأغرقت ركابها ، فأنجا منهم سوى أبي العيناء إذ تعلق بطرف
الزورق فأخرج حياً^(١) لكنه لم يستطع أن يماند الدهر من جديد
فقد عاجته منيته في هذه السنة نفسها فأت كما جزم السمودي
في (سروج الذهب)

مات وما زال الظرفاء يقتدرون بمداعبات أبي العيناء ؟
مات فسكت ذلك اللسان السليط ، وشأت تلك الحركة التي
لا تفرق السكون !

ولكن ... لقد عاش هذا الظريف ضاحكاً طول الحياة ،
حتى إذا حضره الموت أرسل دمه أو دموعاً وهو يودع الدنيا قائلاً:
يا رب هذي الأرض ما تصنع أكل حتى فوقها تصرع ؟
زرعهم حتى إذا ما أتوا أشدم تحصد ما تزرع !
وبعد ، في كنوز الأدب العربي لآلئ نادرة كأبي العيناء ،
خليق بأربنا أن نفع عليها لنخرجها لشبابنا الناهض فتسحر
القلوب وتخطف الأبصار .

صبي إبراهيم الصالح

(١) لسان الميزان ص ٣٤٤ ج ٥

جامعة فاروق الأول

إدارة شؤون الطلبة

عرضت غرفة الاسكندرية التجارية
المصرية تقديم جائزة قدرها ١٠٠ ج تمنح
عن أحسن رسالة للدكتوراه أو الماجستير
في « تاريخ الاسكندرية التجاري في
القرون الوسطى »

وقد وافقت الجامعة على ابلاغ ذلك
إلى كليات الآداب والحقوق والتجارة
للنظر في منح الجائزة لأحسن رسالة تقدم
لها في الموضوع المذكور .

٩٢٥٩

في ترجمة محمد بن القاسم أبي العيناء . ونلمح في كل هذه الدعابات
أو أكثرها إشارة عنيقة إلى تمرده على البشر ، وتشاؤمه منهم ،
وقلة إيمانه بهم !

وجميل بنا أن نذكر أنه عاش فقيراً ، ولكنه - على قلة
ذات يده - كان يملأ قلبه العطف : بطعم المساكين ، ورحم
الضغاف العاجزين ، وبإذله أن يداعبهم كما يداعب غيرهم لملهم
يطربون : دعاسائلا ليمشيه فلم يدع شيئاً إلا أكله فقال له :
« يا هذا ، دعوتك رحمة فأتركني رحمة »

بيد أنه إذا اشتدت به الحاجة لا يسأل من أي سبيل يجمع
ماله : قال أبو العيناء « مررت يوماً في درب بسر من رأى فقال
لي غلام : يا مولاي في الدرب حمل تسمين والدرب خال . فأمرته
أن يأخذه ، وغطيته بطيلسانى وصرت به إلى منزلي . فلما كان
من الغد جاءني رقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب مكتوب فيها :
جمعت فداك : ضاع لنا بالأمس حمل فأخبرني صبيان دربنا أنك
أخذته ، فأمر برده مفضلاً . فكتبت إليه : يا سبحان الله !
ما أعجب هذا الأمر ! مشايخ دربنا يزعمون أنك بئس وأكذبهم
أنا ولا أسدقهم ، وتصديق أنت صبيان دربك أني أخذت الحمل ؟
قال : فسكت ولم يعاودني » .

وهو في العداوة خصيم مبین : يشمت ويتمنى الشر والضرر .
مر يوماً على دار عدو له فقال : ما خبر أبي محمد ؟ فقالوا : كما تحب
قال : فإلى لا أسمع الرنة والصياح ؟ »

وعلى كل حال ، فقد كان هذا الشاعر الظريف من هؤلاء
الأفراد الضاحكة وجوههم البياكية قلوبهم ، الذين نرى ظواهرهم
لاهية ، ويرون حقائقهم قاسية . وكأنما رأى أن الهزل يسرى
عنه بعض ما يجده ، فبق يضحك الناس عمراً طويلاً حافلاً ،
وكان خير ما أرشاه أنه أراد أن يستوى على عرش الهزل استيلاء
الحاكين على عرش الجدد ، فكان له ما أحب منذ بلغ أشده حتى
رد إلى أرذل العمر فات .

وبعد ، فكأنما كان هذا الظريف - حتى في شيخوخته -
يمانده الدهر ولا يريد أن يموت : فقد ركب سنة ثلاث وثمانين
ومائتين سفينة إلى البصرة وكان فيها ثمانون شخصاً ، ففضت